

المحاضرة الأولى:

الجزائر قبل الفتح الإسلامي

تمهيد :

يبدأ تاريخ الأدب الجزائري الذي درجنا على دراسة أدبه بالفتوحات الإسلامية ، وهذا في حد ذاته يمكن أن يحدث اضطرابا في الذاكرة التاريخية والثقافية ، لاسيما إذا لم يتدارك الموضوع أكاديميون حريصون على ربط حلقات التاريخ بعضها ببعض بحكمة تحفظ للأمة انسجامها ووحدتها.

في هذا السياق سنحاول بناء مشهد أدبي بالبحث عن رأس الخيط في الأدب الجزائري لضمان تواصل الحلقات، لاسيما وأنا وجدنا أن الفراغ الذي تعاني منه الساحة الأدبية في الجزائر -إما بضياع المدونة الأدبية القديمة أو بإهمالها- هو الفضاء الأمثل لتواجد الباحث.

في ضوء ذلك نطمح من خلال هذه المحاضرات الذي اختصت موادها بالنثر الجزائري قديمه وحديثه تجنب الجاهز حول بدايات هذا النثر ، وكذا تجاوز المتفق حوله.

ومن المستحسن ونحن نتدارس أدب الجزائر القديم بأجناسه المختلفة أن نعاين تاريخ الجزائر القديم لاسيما مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي بخصوصيتها الجغرافية والتاريخية والثقافية.

تاريخ شمال افريقيا:

إن التاريخ أساس حياة الأمم ، وهو يعلن كما هو معلوم عن بدايته بالكتابة . لكن ما تزال بدايات التاريخ في أفريقيا الشمالية محل نقاش ، إذ لم يفصل الباحثون

في إشكالاته إلى يومنا هذا. وذلك نظرا لأن المدونة المكتوبة عن هذه المرحلة لم تصلنا كاملة ، وأمام هذا الوضع يكتفي الباحث بالحفريات المتعلقة بالتاريخ القديم لشمال أفريقيا.

كان شمال أفريقيا خاصة "الجزائر الشرقية" بوابة بلاد البربر المفتوحة على الحضارات الشرقية ، تشهد على ذلك العلاقات المبكرة التي عقدها مع صقلية ، مألطة ايطاليا سردينيا عبر هذه الحدود تكون قد دخلت العناصر الأولى لحضارة متوسطية من أصول شرقية وغربية.

يقول سالوسيت عن هذا الفضاء الجغرافي وعن سكانه : "البحر بها هائج الأرض خصبة صالحة لتربية المواشيالرجال أقوىاء خفيفي الحركة قساة في العمل ، يموتون عادة بالشيخوخة ، باستثناء حالة موت عنيفة بالحديد أو الوحوش، نادرا ما يستسلمون للمرض ."

أصل السكان :

المازيس: هو اسم واسع الانتشار نجده في كل جهات البلاد البربرية. جذر هذا الاسم هو : "م ز غ" أو "م ز ك".

عرف الكتاب القدامى "المازيس" الذين أسموهم الليبيين ثلاثة شعوب كبرى يمكن توزيعها باختصار على الخريطة وهي: المور(أقصى الغرب) ،النوميد(الشمال والوسط)، الجيتول (الجنوب). لهذه الأسماء عبر القرون مدلولات مختلفة ، فالإغريق على غرار القرطاجيين كانوا لفترة طويلة يطلقون اسم "النوميد" على كل الأفارقة غير الخاضعين لقرطاج مفضلين الاحتفاظ باسم ليبي في الإشارة إلى الأهالي الساكنين في الإقليم الخاضع لتلك المدينة.

وفيما يتعلق بالسكان الليبيين في أقصى الغرب نراهم يطلقون عليهم اسم المور بدل النوميدي، أما التمييز بين الاسمين فلم يتم نهائيا إلا بعد أن تعرف الرومان على وجود مملكة أهلية في المغرب .

أما السكان الرحل فتعني النوميدي ، نذكر أن نوميديا هو اسم أطلقه الرومان على شمال أفريقيا. على الرغم من ذلك تبقى "نوميدية" صيغة مختلف حولها كثيرا ، والأرجح أن يكون اسم "نوميدية" ما هو إلا كنية تشير احتمالا إلى الأصل بالمعنى الواسع ، كما أن هناك من يرى أن "نوميدية" من الاسم الاغريقي Nomades أي "الرحل" ثم أخذ الرومان من الإغريق هذه الكلمة.

من جهة أخرى لم يتبين أن أيام الإغريق أو الرومان استعملت لفظة بربر علما على الأمة الإفريقية.في نفس السياق يعتبر ابن خلدون أن "بربر" من العربية وتعني الكلام غير المفهوم ، حيث قارب بين مفهوم بربر ومفهوم عجم الذي يسمي به العرب الفرس ، ولم يربطه بالأصل الإغريقي ولا بالوحشية.

المملكة النوميديّة : (الماسسيل والماسيل):

إلى الشرق من المور إلى جوار قرطاج يسكن النوميدي ، وخلال الفترة الرومانية كان اسم النوميدي مقتصرًا على بعض قبائل الشرق الجزائري وتونس ، إذن انتشر النوميدي في إقليم مابين المور وقرطاج ، وشغلوا المناطق المسماة البربرية الشرقية والبربرية الوسطى.

قامت في شمال افريقيا دولتان هما المملكة الماسيلية (203-148ق.م) التي تشغل الأقاليم الممتدة من القطر القرطاجي إلى المنطقة السيرتية، أي أنها مطابقة

للبربرية الشرقية تقريبا. أما المملكة الثانية هي الماسيلية (230- 203 ق.م)، فهي التي تشغل باقي الجزائر الحالية وجزء من المغرب الشرقي إلى وادي ملوية. ويخبرنا "بليوس" أن مهد القوة الماسيلية هو المنطقة الوهرانية وما يجاورها من المغرب الشرقي.

يبدو جليا أن أسماء النوميديين : ماسيل، ماسيل هي أسماء أهلية استمرت في أسماء الأعلام الأمازيغية

يعد حكم النوميديين المرحلة التي تشكل فيها مفهوم الدولة والمدينة وبالتالي هي أكثر الفترات استقرارا . وكما أشرنا سابقا فقد ظهرت على هذه الأرض النوميديية مملكتان : مملكة الماسيل المرتبطة باسم "سيفاقس" ، ومملكة الماسيل والتي عرفت ازدهارا على يد "ماسينيسا" عاصمتها سيرتا توحدت هاتان المملكتان في عهد الحاكم ماسينيسا

المملكة النوميديية هي في الأساس مجموعة من القبائل ،كانت كل قبيلة تملك سوقا وحصنا تلجأ إليه ،وقوى متوسطة أو صغيرة. أما المدينة فشيدت وأقيمت لها نظمها خارج فضاء القبيلة ... كل المدن مهما كان موقعها ومنشأها تأخذ في نوميديا طابعا بونيا في إدارتها كما هو الحال في كل الأشكال الحضارية الأخرى .

كون "سيفاكس" في المنطقة الغربية القوة التي سمحت له بلعب دور تاريخي لا يستهان به، لكن يقول "بليوس" أن المور والماسيسيل تراجعت قوتهم وأصبحوا عبارة عن مجموعة عائلات لا غير في أعقاب الحروب . وجاءت حركة ارتداد من قبل ماسينيسا وحلفاؤه، حيث وسع سلطته لتصل إلى حدود المور . وقد توسعت مملكة الماسيل في اتجاهين :نحو الغرب على حساب الماسيسيل ونحو

الشرق على حساب القرطاجيين وذلك على مراحل. (استولى "ماسينيسا" بين 202-203 على مملكة "سيفاكس". وحكم بلاد النوميدي من 203 إلى 148 ق.م.)

عندما اعتلى "ماسينيسا" العرش الماسيلي واعترف له بذلك في أعقاب هزيمة سيفاكس ، كان النوميدي قد بلغوا درجة من الحضارة لا يستهان بها ، وكان القسم الأكبر من هذا الإقليم مستغلا، كما أن تربية الأبقار كانت تكتسي أهمية أكثر من اليوم، ومثلها تربية الخيول التي اشتهر بها الماسيل .

قام مشروع ماسينيسا على توحيد بلاد البربر. وهو صاحب شعار "أفريقيا للأفارقة". وقد بقي خارج مملكته كل من قورين، موريطانيا و إقليم قرطاج. وهو أول أمازيغي دخل التاريخ من بابه الواسع بفضل لعبت نوميديا دورا في التاريخ المتوسطي.

تعني الكلمة ماسينيسا: "سيدهم جميعا ."

اجتذب ماسينيسا التجار المصريين والسوريين ، وضاعف احتكاكه بالإغريق على امتداد حكمه ، وهو ما جعل فترة حكمه فترة انفتاح بلاد البربر على التأثيرات الإغريقية ، ليس فقط في المدن الساحلية ولكن في المدن الداخلية أيضا. نذكر أن هذه المملكة تمكنت من تطوير هياكلها مستفيدة من الحكم القرطاجي .

وعلى الرغم من هذا التفوق المشهود له تاريخيا ، إلا أن الأرشيف المدون لهذه المملكة ضائع ، في هذا الصدد يؤكد غبريال كامبيس:قائلا: "نحن نرى أن ملكا حكم أكثر من نصف قرن وكان له صيت في كل بلدان حوض المتوسط يستحيل ألا تكون حياته وأعماله مدونة ، مما يدعم فكرة أن أرشيف المملكة النوميديية يكون قد أحرق بحيث لم ينج منه شيئا "

الملاحم المجتمعية:

تنقسم شعوب أفريقيا الشمالية البيضاء منذ القرن 5 ق.م ودون ريب قبل ذلك على صعيد نمط المعيشة إلى قسمين مختلفين: المزارعون المستعمرون ، مربوا الحيوانات الرحل، الذين يسكنون الخيام وهم ينتمون إلى عائلة لغوية واحدة، اسمهم كان قبل كل احتلال أجنبي "المازيس" "أمازيغ". أما الاسم "ليبي" فالإغريق هم الطين نشره ووسعوا نطاق استعماله ليضم سكان أفريقيا الشمالية "البربر" ثم اختزلوه في البربر من رعايا قرطاج. القرطاجي .

هل كان هناك مجتمع منظم إلى حد ما عارف بالفلاحة ومستقر في تجمعات عمرانية؟ أم أن البربر انتظروا السيطرة القرطاجية أو الرومانية لتشييد المدن؟

لم ينتظر أهالي الشمال الأفريقي مجيء البحارة السوريين لمزاولة تربية الحيوانات والفلاحة ، وهذه الفكرة الموضوعية خرج بها استيفانأقزال سنة 1911م منذ أن بدأ علم الآثار يكشف عن الخطوط العريضة لما قبل تاريخ الشمال الأفريقي.

النوميديون تركيبة متنوعة ليست من عرق واحد :1-السكان المحليون البسطاء.

2-فئة يسيرة من ملاك الأراضي.

3-فئة التجار الذين بقوا من الفينيقيين أي من العهد القرطاجي القديم.

4-فئة أخرى من التغلغل الروماني في الأراضي وهي من جنسيات مختلفة منحت أراض زراعية، تحولوا غالبا من عسكريين إلى ملاك أراضي نوميديية بعد أن فاقت خدمتهم للحكم الروماني من 20 إلى 25 سنة .

تمكن الحاكم "ماسينيسا" من عقد ترابط بين الشعب وأرضه انطلاقا من الاهتمام بالزراعة وتمكن بفضل فطنته من خلق نوع من المواءمة والاستقرار لهذا الشعب الذي تذكر الكتب التاريخية أنه عانى من اللاستقرار حسب روايات المؤرخ سالوسيت. في هذه الفترة بدأ البربر يظهرين بشكل مختلف بعد أن طرحت أرضهم القمح والزيتون غطت به احتياجات كامل الإمبراطورية الرومانية. نذكر في هذا المقام أن الحكم الروماني لشمال أفريقيا دام أزيد خمسة قرون.

إن عزم الرومان على تثبتيت المملكة النوميديية جاء نتيجة خوفهم من استقرار هذه المنطقة لذا عزموا على تثبتيت وحدتها وتفريق قواها، أي إعادة صياغة شمال أفريقيا جغرافيا وتقسيمها إلى مقاطعات يسهل استغلالها اقتصاديا. وهنا من المستحسن أن نشير إلى أن الكثير من الدراسات تتفق على أن السيطرة على أفريقيا الشمالي

المحاضرة الثانية:

الجزائر قبل الفتح الإسلامي ثقافيا

الثقافات السائدة

عصر الفينيقيين :

الحضارة القرطاجية هي حضارة أفريقية ولم تسقط بسقوط قرطاج، والذين ينفون أو يستبعدون عن قصد الانتماء الجغرافي للحضارة ويغلبون الجانب العرقي يخالفون الحقيقة التي يؤكدها التاريخ عبر العصور، وهي أن قاطرة الجغرافيا هي التي تقود التاريخ....وما الحضارة التي يقال عنها بونية سوى محصلة لذلك الاندماج والانصهار بين الأفارقة والجالية الفينيقية .

عموما لقد فرض النظام المتطور الجديد معاملات جديدة حيث استعملت الدواوين والسجلات لحفظ المعاملات التجارية والسياسية، هناك بدأت تظهر الكتابة في دائرة ضيقة محصورة على فئات محدودة متصلة ببلاط المملكة النوميديّة ثم توسع استعمالها لدى الطبقة الاجتماعية العليا في المملكة.

اللغة الرسمية لهذه المملكة هي اللغة البونية . بظهور الكتابة تغير وجه المنطقة حيث قفزت إلى مرحلة بداية التاريخ.

ينبغي أن نشير إلى أن روما تظل مسؤولة عن ضياع الأرشيف القرطاجي ، فكيف تحافظ على ذاكرة بلد أخضعته بالقوة نحو حروب استمرت عشرات السنين . والذاكرة كما هو معروف هي أخطر شيء على الاستعمار على مر العصور، ولذلك لا نستبعد أن يكون إتلاف مكتبات المدن البونية والأفريقية عموماً مقصوداً من قبل روما.

الحضارة البونيةPunique:

يقول غبريال كامبيس: "اللغة البونية هي اللغة الفينيقية كما تكلمها الأفارقة .". نظر المؤرخون إلى اللغة والثقافة البونية نظرة عرقية ، مع أن الواقع غير ذلك تماماً ، فالبونية هي الفينيقية كما تكلمها الأفارقة ، ولا ينبغي الانزلاق إلى إسقاطات خارج سياق التاريخ. وإذا صدرت عملة الملوك الأفارقة برموز بونية، فإن ذلك لم يكن عنوان تبعية لثقافة ولغة شرقية ، لأن الأفارقة لم يكونوا يعتبرون ما يطلق عليه هؤلاء حضارة بونية حضارة شرقية أجنبية، بل هي حضارتهم نشأت ونمت في وطنهم ، فمن الصعب فرز البوني عن النوميدي و الموري في تلك المرحلة. لقد اندمجت الجالية الفينيقية في الشعب الإفريقي، بل إن ما نتج من حضارة على الأرض الإفريقية ينبغي أن يأخذ هوية إفريقية لتجنب الوقوع في تصنيف الأعراق على الطريقة النازية.

الحضارة البونية كانت قد تجذرت في الأرض النوميديّة إلى الدرجة أن الإغريق التحقوا في سيرتا بواقع الحياة العامة، وعبدوا "بعل أمون" وتكلموا البونية ، وأعطوا لأبنائهم أسماء بونية.

عصر الرومان:

استغرقت اللغة اللاتينية وقتا طويلا دون أن تحتل مكانة في الأوساط العامة والحياة اليومية ، إذ ظلت مدة طويلة لغة المثقفين والطبقة الراقية والمدونات الأدبية التي وصلتنا عن هذه المرحلة جميعها باللغة اللاتينية.

على قدر التصادم السياسي والعسكري الذي كان قائما بين الرومان والنوميدي عبر المحطات التاريخية انتعشت العلاقات الثقافية والدينية بين المنطقتين، بل أضحى التلاقح من أبرز معالم اللوحة الثقافية والفنية. لاسيما على عهد تولي ماسينيسا الحكم على المملكة النوميديّة.

لكن ما يمكن ملاحظته على مستوى آخر أن اللغة اللاتينية ظلت وقتا طويلا دون أن تحتل مكانة في الأوساط العامة والحياة اليومية ، اقتصرت على المثقفين والطبقة الراقية. نذكر أنه ما بين القرنين الثاني والخامس قبل الميلاد تحولت نوميديا إلى مرآة للآتينيّة.

وقد تكوّن المثقف النوميدي في الإمبراطورية الرومانية . وانفتح على حضارة العالم المتوسطي التي تعايشت فيها ثقافات مختلفة . أهم الحواضر الثقافية الإفريقية مادور (مداوروش) مقاطعة تابعة لنوميديا الشرقية شهدت ميلاد أبوليوسالمداوري. وتاغست(سوق أهراس) التي أنجبت كبير الفلاسفة والقديسين الأفارقة أوغسطين .

ألفت أهم نصوص المثقفين البربر باللغة اللاتينية ما بين القرن الأول والسادس الميلادي ، وأهمها لرجال الدين.

أقدم نص روائي لأبيلي " Apulee لوكيوسابوليوس " ولد في القرن الثاني حوالي 125-170م بمدينة مداوروش قرب سوق أهراس ، من أهم مؤلفاته:

الحمار الذهبي أو التقمصات إلى جانب ديوانه "الأزاهير" . ويعتبر مؤلفه " الحمار الذهبي" أول بادرة في كتابة الرواية العالمية .

من الأسماء النوميديّة الأدبية كذلك " Marcus Manilius: ظهر في بدايات العهد المسيحي . وسانت أوغسطين :شارك في مسابقات الشعر الدرامي فاز بجوائز، وكوفئ على يد الحاكم الروماني "فنيسيانوس" ، إلا أنه بعد اعتناقه المسيحية اعتبرها هفوات شباب.

"فلوريس" شجعت انتصاراته بالمسارح النوميديّة أن ينظم إلى مسابقات روما في ألعاب كاييتو التي يبرمجها دوميتان ، إلا أنه لم ينل أية جائزة من روما فاتهم الإمبراطور على تحيزه باعتباره قادم من إفريقيا.

وصنف "تيرانس" في المرتبة السادسة من قائمة الشعراء الكوميديين الموضوعه في القرن السابع الميلادي من طرح Volcatius Sedigitus:

الكتابة الليبية:

خارج مجال الحضارة القرطاجية كان للأمازيغ لغتهم ومنظومتهم الكتابية ، وإذا كانت هذه الأداة الحضارية قد انتظمت خارج التأثير الفينيقي ، فإن ذلك يقدم الدليل على أن الأفارقة لم يتخطوا الوحشية البدائية فقط ، ولكن أحسوا بالحاجة إلى تثبيت وترسيخ حركة الفكر والخطاب بالكتابة. ومع أن للألفباء الليبية حروفها الخاصة التي تميزها عن الأبجدية الفينيقية، فإن شكل الحروف في ذاته بعيد كثيرا أو

متعارض مع المظهر الانسيابي بالأساس للحروف البونية ، هذه الأخيرة هي كتابة تجار يخطونها بسرعة على شمع أو ورق البردي ، فالأحرف البونية كلها حروف منحنية حلزونية الشكل ، أما الحروف الليبية فعلى العكس مستقيمة الخطوط، تكون أشكالاً هندسية أساسية ، وكما لاحظ "فيفري" فإن هذه الكتابة لم تستعمل على ما يبدو إلا في نقش نصوص على الحجر أو على مادة صلبة. "

يوجد تشابه بين الحروف الليبية والحروف الفينيقية ولكن هناك تشابه أكبر في بعضها مع الفباء الجنوب العربي "اليمن".

استعملت الكتابة الليبية في نوميديا الشرقية "الماسيل" ، كما أنها لم تكن مجهولة لدى "الماسيل" ولا لدى المور ولا حتى الجيتولوالقرامنت، وقد واصل التوارق وهم خلفاء الجيتولوالقرامنت استعمال هذه الكتابة.

الكتابة الليبية أقدم من الكتابة البونية بدليل أحد النقوش الليبية النادرة المؤرخة – وهو النص الإهدائي في معبد ماسينيسا بدوقة 139 ق.م يعود إلى فترة لم تكن قد ظهرت فيها الكتابة البونية الجديدة المنبثقة عن الكتابة البونية بعد.

ينبغي أن نشير إلى أن اللغة إذا لم تتوفر لها الحماية تخترق من طرف لغات أخرى مدعومة من النفوذ السياسي أو الاقتصادي أو الديني. وهذا ما عانت منه اللغة الأمازيغية في هذه المرحلة مثلما عانت منه اللغة العربية على عهد الاستعمار الفرنسي.

للتذكير فإن الاسم "ليبي" في الأصل هو اسم لمجموعة من الأفارقة وقع تعميمه على الشعب الإفريقي وقد كان الأفارقة يسمون به أنفسهم في الفترة ما قبل احتلال الرومان.

بدأ الاسم "ليبي" يتراجع تدريجيا تاركا المجال لاسم آخر من أصول أهلية هو إفريقيا. وقد يكون هذا الاسم علما على قبيلة أفري الممركزة بجوار قرطاج عمم لاحقا على البلاد والسكان.

الهوامش:

1- غابريال كامبيس ، ماسينيسا أو بدايات التاريخ ، ترجمة وتحقيق : العربي عقون الجزائر ، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية – الطبعة الأولى ، 2012 ، ص. 5 .

2- م س ، ص.5

3- Salluste, Guerre de Jugurtha, .Traduit par:F.Richard, Edition.GornierFlamarion, Paris1968

4-محمد الصغير غانم ، المملكة النوميدية والحضارة البونية ، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 1998 ، ص. 27.

5- غابريال كامبيس ، ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ص. 38.

6- طامرأنوال ، حفريات المسرح الجزائري – المسرح النوميدي في العهد الروماني، الجزائر ، دار الكتاب العربي ، 2007 ، ص. 31.

7- غابريال كامبيس، ص. 5.

- 8- طامر أنوال ، حفريات المسرح الجزائري، ص.21.
- 9- محمد الصغير غانم ، المملكة النوميديّة والحضارة البونية، ص.43.
- 10- حفناوي بعلي، طبقات الأدب النوميدي الإفريقي خمسة آلاف عام من الثقافة في الشمال الإفريقي ، الجزائر ن منشورات الاختلاف ، 2016. ص: 92 .93.
- 11- لوكيوس أبوليوس ، الحمار الذهبي ، ترجمة أبو العيد دودو ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، 2001 .
- 12- طامر أنوال ، حفريات المسرح الجزائري، ص.23.
- 13- حفناوي بعلي، طبقات الأدب النوميدي الإفريقي، ص.58.
- 14- غابريال كامبيس ، ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ص.127.

المحاضرة الثالثة:

إشكالية اللغة الأدبية في الجزائر

إن موقع الجزائر الاستراتيجي جلب لها الكثير من المهالك على مدى الأزمنة و العصور، و ذلك ما جعل مسألة الأدب و الأدبية أكثر تعقيدا مما هي عليه في الدول العربية، و ألبس المنظومة الأدبية في الجزائر قديما وحديثا لبوس التشابك و التداخل و التعقيد .

إن مقولة الجغرافيا تؤثر في التاريخ بل تصنعه، أثبتت نجاعتها بقوة على صعيد الواقع ، فإذا اعتبرنا أن تاريخ حضارة الفراعنة في مصر صنعتها جغرافيا نهر النيل، فإن جغرافية شمال إفريقيا بإطلالتها على البحر الأبيض المتوسط وخصوبة أراضيها جعلها طعاما سائغا في أيدي الغزاة و المحتلين .

هذا التلاقح الثقافي و التعدد اللغوي الذي شهدته منطقة شمال إفريقيا جعل مسألة الأدبية تعرف وضعاً شائكا على المستوى النقدي . وأصبحت مسألة الأدبية في الجزائر

مطروحة بشكل قوي من ناحيتين:

أ- الزمن : من أين نؤرخ للأدب الجزائري؟

هل:

بعد نهاية الحرب البونوية الأولى؟

منذ بداية دخول الإسلام و اللغة العربية إلى الجزائر؟ (مع بداية تأسيس الدولة الرستمية في المغرب الأوسط والتي تعود نشأتها إلى مابعد منتصف القرن الثاني الهجري).

أم بداية من القرن التاسع عشر؟(بداية انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر).

ب - اللغة: ما هي اللغة التي تعبر فعلا عن الهم الإبداعي الجزائري؟

هل هي اللغة الأمازيغية؟ (وهي لغة غير موحدة و غير مكتوبة)،

أم هي اللغة الفينيقية التي كانت أول لغة تقنية يعرفها كل سكان حوض البحر المتوسط؟

أم هي اللغة اليونانية التي كتبت بها آداب البحر المتوسط و رسخت لثقافة أدبية عالمية؟

أم هي اللغة الرومانية التي كتب بها كثير من الأدباء ورجال الدين الجزائريين ودونوا بها آدابهم ومعارفهم؟

أم هي اللغة العربية التي أكرمنا الله بها مع الفتح الإسلامي؟ وهي اللغة التي أورثت الإنسانية ثقافة لا نظير لها.

أم اللغة الفرنسية التي فرضها الاستعمار الفرنسي فرضا و ما زال يفرضها عنوة علينا حتى بعد أن دحرت مخططاته تحت أقدام ثورة التحرير المجيدة؟

لقد قدم أبو القاسم سعد الله قراءة لوضع اللغة والأدب في الجزائر قديما وحديثا وخلص إلى ما أسماه انعدام المركزية الثقافية التي لا حظ غيابها عبر العصور والتي أفرزت بحسبه ما سماه بـ "التشرذم الثقافي" 1، وهو وضع له ما يبرره تاريخيا :

ما قبل الإسلام تميزت المرحلة التاريخية بالفوضى اللغوية أمام انعدام المركزية السياسية: فينيقية، لاتينية، يونانية، عاميات بربرية... وأشار سعد الله إلى أن الأمازيغ هم خير نموذج للأمم التي لم تسجل تاريخها، إنهم أمة بدون ذاكرة مدونة، فهم قبائل عديدة ولكل قبيلة لهجتها، ولم يعرف عنهم أنهم توحدوا في دولة واحدة رغم ثوراتهم العديدة، ومقاومتهم لكل سلطان حتى قيام نوميديا الذي جاء متأخرا نسبيا وكان معتمدا على خلق التوازن بين القوتين: (روما وقرطاج).

ومثلما لم يؤسس الأمازيغ دولة واحدة لم يستعملوا لغة موحدة باستثناء العاميات التي ليست أداة لتدوين التاريخ، فتاريخهم كتبه المصريون القدماء اليونان، الفينيقيون، الرومان، الوندال، البيزنطيون، العرب، الإسبان، والفرنسيون... وظل الأمازيغ إلى غاية القرن السادس الميلادي بدون تراث مكتوب

أمام هذا الوضع كتب أدباؤهم بلغة الدول المتسلطة عليهم. ومن ثم عد البعض أدبهم أدبا لاتينيا أو إغريقيا (اليونان).

في العصر الإسلامي ظل التشرذم قائما في ظل غياب مركزية سياسية²، فكانت العاميات البربرية إلى جانب اللغة العربية. في هذا المقام من الضروري أن نشير

إلى أن مشروع تعريب سكان بلاد المغرب استغرق زمتا طويلا، وهو المشروع الذي سبق زمتيا حركة التأليف والنظم.

أثناء الحكم العثماني لم يفرض النظام التركي رغم مركزيته وتحديدته لمعالم الجغرافيا الجزائرية لغة واحدة، حيث كانت التركية لغة الإدارة في الجهاز المركزي إلى جانب اللغة العربية واللهجات الأمازيغية التي حافظت على حيويته.

ومع الاحتلال الفرنسي تعمق هذا التشرذم الثقافي. ثم مع استقلال الجزائر وإحلال المركزية السياسية لم يزل هذا التشرذم نتيجة فرض اللغة الفرنسية في الإدارة والمعاملات الإدارية اليومية وانحصرت تعليم اللغة العربية في المدارس.

نلاحظ أن اللغة المحتمية بالاستعمار لها القدرة على السيطرة أكثر من اللغة المحلية (فمثلا المؤثرات الصهيونية و الاستشراقية أدت بـ"أتاتورك" إلى استبدال الحروف العربية باللاتينية في اللغة التركية). إن اللغة إذا لم تتوافر لها الحماية تخترق من قبل لغات أخرى مدعومة بالنفوذ السياسي والاقتصادي والديني، وهذا ما عانت منه الأمازيغية قبل الإسلام مثلما عانت منه العربية على عهد الاستعمار.

المحاضرة الرابعة:

الأدب الجزائري - المفهوم والخصائص

الاشكالية التي تقوم عليها المحاضرة :

كيف نحدد مفهوم الأدب الجزائري في ظل المعطى التاريخي والثقافي ؟

يشكل الأدب الجزائري القديم جزءا هاما من تاريخنا الثقافي ، لذا ينبغي علينا إنزاله المكانة التي تليق بمقامه ، لكن جميعنا يعلم أنه أدب مشتت، تتحتم علينا العناية بجمعه وبعثه وإحيائه. وليس هذا بعمل فرد ، إنما هو مشروع أمة ينبغي أن تحشد جهودها وتتكاثف للبحث عن عنصر الأصالة وخصائص القيم الثابتة في أدبنا القديم .لعلنا ننصفه وندخل ببلادنا مرحلة النضج.

تواجه الباحث في هذا الحقل البكر أسئلة عميقة نحتاج إلى تفعيلها بعيدا عن الرؤية الضيقة من قبيل:

من أين نورخ للأدب الجزائري القديم؟ إلى أين ينتهي هذا القدم ؟ ثم ما هي محددات هذا الأدب ؟ ما هو لسانه ؟ ما هي أبعاده؟

هي أسئلة كان قد طرحها قبلنا الدكتور عبد المالك مرتاض في مقدمة كتابه :الأدب الجزائري القديم - دراسة في الجذور3 ، منتهيا إلى أن بداية هذا الأدب مقرونة بعهد الدولة الرستمية . لكن الذي يفك شفرات تلك المقدمة يستشعر أن الباحث مرتاض يكاد يقتنع أن ثمة أدب جزائري يسبق هذه المرحلة (قبل الفتح الإسلامي).

ولأن الخوض في البحث في ما قبل هذه المرحلة قد يثير الكثير من الحساسيات فضلا عن تعذر الحصول على المادة الأدبية، فقد تجاوزه الباحث. لكن تظل تلك الأسئلة الجريئة- على النحو الذي وصفها - حجة على صاحبها في أن ربط تاريخ الأدب الجزائري القديم بالعهد الرستمي مسألة غير قطعية وتحتاج إلى طرح نقدي متجدد ، و إلا ما الذي حمل الباحث إلى إثارة أسئلة من ذلك القبيل؟ ليصبح الأدب الجزائري القديم على العهد الرستمي وفي ضوء قراءتنا النقدية لمقدمة كتاب مرتاض لا يمثل سوى طورا من أطوار هذا الأدب. فهناك أطوار سابقة وأخرى لاحقة.

ما نلاحظه على تاريخ الأدب الجزائري أنه أدب مبعث دوما نحو الهامش رغما عنه. لكن كيف يتعاطى هذا الأدب مع الإقصاء؟ ما وقفنا عليه هو أن الأدب الجزائري في أطواره المتعددة يعيش صراعا من أجل افتكاك مكانة ما في مركز الدائرة.

يصارع الأدب الجزائري عقدة الهامش ليعتصم في مركز الأدب العالمي ممثلا صدارة الأعمال الروائية بدءا من رواية "الحمار الذهبي" للوكيوس أبوليوس (124م)4، هذه الرواية على الرغم من إقرار الغرب بانتمائها الأصلي، يوردها محمد غنيمي هلال في كتابه "الأدب المقارن" دون ضبط الاسم الكامل لصاحبها وينعتها بأنها رواية لاتينية "لها أصل يوناني مجهول المؤلف"5. ليعمق بذلك عزلة النص الأدبي المحلي معززا فكرة الإقصاء التي يعانيتها . ونعتقد أن غنيمي هلال له من الأدوات ما يؤهله لأن يقف على هوية صاحب النص. وجملة واحدة من تلك الرواية كانت ستفك اللغز لدى قول السارد عن نفسه : "رجل مداوري* فقير جدا"6. هل فات غنيمي هلال أن يقرأ النص؟ أم أنه قرأه وغيب الجملة تلك، لأنها تؤشر على انتماء أبوليوس وعلى هويته؟

في السياق نفسه يعترف جورج ماي في كتابه السيرة الذاتية L' autobiographie⁷ بأن اعترافات القديس أوغسطين . تكون قد سبقت بقرون طويلة السيرة الذاتية التي عرفها الغرب قديما وحديثا . دون أن ننسى الإفادة التي أفادها منه كبار المنظرين في حقل التأويل و السيميائيات ، على رأسهم أمبرتو إيكو الذي اعتبر أوغسطين من أوائل الذين طرحوا السؤال: ما يعني أن نفسر ونؤول؟ انطلاقا من تأويله للنصوص المقدسة ...ومعطيات كثيرة تفيد أن السيميائي الأمريكي شارل بيرس قرأ أوغسطين وتعمق في تصوراته وأخذ عنه الكثير في التأسيس لأطروحاته . ولعل فهم الدين عن طريق الفلسفة مشروع أسس له القديس أوغسطين -الذي ساهم في تطوير الفكر البشري -ثم تعمق مع الفارابي وابن سينا و ابن رشد ومع غيرهم من العلماء المغاربة والأندلسيين.

في ضوء العرض التي أتينا عليه سابقا يتضح أننا نتعارض مع المقولة التي تنص على ربط بدايات الأدب الجزائري بالعهد الرستمي والمنجز العربي فقط لهذا الأدب .وعطفا على ذلك يمكن صياغة تعريف شامل للأدب الجزائري على النحو التالي :

الأدب الجزائري هو: مجموع الأعمال الأدبية التي دونها جزائريون عاشوا في الجزائر أو قضوا فيها حقبة من حياتهم، حيث تفاعلت مخيلتهم والواقع الجزائري فعمكسوا سماته (الواقع) من خلال موضوعات تعد جزءا من خصوصية البنية الثقافية لهذا المجتمع .

الهوامش:

- 1- أبو القاسم سعد الله ، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، الجزء الرابع ، بيروت -لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص.8.
- 2- م س، ص.9.
- 3- عبد المالك مرتاض، الأدب الجزائري القديم -دراسة في الجذور، الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. 2009: ينظر المقدمة.
- 4- لوكيوس أبوليوس ، الحمار الذهبي ، ترجمة أبو العيد دودو ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، 2001.
- 5- محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار الثقافة - دار العودة ، ص.202.
- 6- لوكيوس أبوليوس ، الحمار الذهبي، ص.291.
- 7- May Georges L'autobiographie ,Ed :P.U.F.Paris:1984

المحاضرة الخامسة :

الحمار الذهبي لليوكيوس أبوليوس

تمهيد :

ظل المشروع الاستعماري في شمال إفريقيا منذ السيطرة الرومانية إلى الهيمنة الفرنسية متوحدا في الرؤى والأهداف . وقصد إنعاش مخططاته استخدم جميع وسائل الدمار والعنف وما ينضوي تحتها من أساليب الاستياء على الأرض

ومحو الخصوصية، لكن في مقابل ذلك ينبغي الاعتراف بالدور الكبير الذي لعبه هذا المشروع في رسم ملامحنا الشخصية، الوجودية، الفكرية والحضارية .

إن الحاجة إلى معرفة الأنا الإفريقية المغلوبة والعالم المحيط بها تعتمد على معرفة الآخر الغالب والاقتراب منه بإحدى الكيفيات، لذا نلاحظ أن هذه الأنا في الكثير من الأعمال الأدبية تتقوى في ضوء تعاملها مع الآخر الخارجي . وبناء على تقييمها للآخر تقيم أناها . هنا تتكشف طبيعة العلاقة الإيديولوجية التي تجمع الأنا الإفريقي بالآخر، و مدى تفاعلها سلبا أو إيجابا.

في هذا السياق سنقدم نصوصا أدبية نثرية جزائرية قديمة استلهمت من الثقافة الوافدة، اللغة والإطار الفني لكتابة ذاتها دون أن تتخلى عن انتمائها و هويتها التي تربطها بالأرض الأم الجزائر. وستتمحور هذه المحاضرات حول حوار الثقافات وخاصة ما يتصل بمنظور الأنا إزاء الآخر للكشف على موقف الأنتلجنسيا الجزائرية حيال الآخر وموقف الآخر من الأنا .

ويعد كتاب الحمار الذهبي للوكيوس أبولوريوس- أحد أهم الأعمال التي تمثل هذه المرحلة . متبوعا بجميع ما أنتجه عقل أوغسطين في علم اللاهوت إلى جانب سيرته الذاتية التي دونها في كتابه الاعترافات . وستكون لنا وقفة مع كتاب حرب يوغرطة لسالوسيت باعتباره أقدم الكتب التاريخية التي تؤرخ لفترة ما قبل الإسلام في شمال إفريقيا.

جدلية الأنا والآخر :

ظل المشروع الاستعماري في شمال إفريقيا يتسم بالعنف والدمار وما ينضوي تحته من أساليب الاستياء على الأرض ومحو الخصوصية والتفرد ، إلا أنه في

مقابل ذلك ينبغي الاعتراف بالدور الكبير الذي لعبه هذا المشروع في رسم ملامح الأنا الوجودية، الثقافية والحضارية.

ففي ظل التصادم المنتج للمعالم الحضارية تارة والمتسبب في الدمار تارة أخرى ظلت هذه الأنا تبحث عن تمظهر ما ، أولا انطلاقا من وعيها بذاتها ووعيتها بضرورة تحولها في ظل تأثيرات العالم الخارجية، ثانيا إدراكها لما يتسرب إليها من الآخر، يصبح إذن الاقتناع بضرورة التعاطي مع الآخر ضمانا لاستمرارية الذات ومسيرة نحو البحث عن آليات التمظهر كبديل عن التوقع والانغلاق.

لكن ماهي محددات الأنا (Le moi) والآخر ((Lautre) ؟

"الأنا هو العقل الشعوري وهو يتكون من المدركات الشعورية والذكريات و الأفكار و الوجدانات. إن الأنا مسؤول عن شعور المرء بهويته و استمراريته وهو من وجهة نظر الشخص ذاته يعتبر في مركز الشخصية."1 ، أما الآخر فهو مفهوم غير نابع "من المعني بالأمر ، بل إنه صادر عن الطرف المضاد ، ومن ثمة فهو مفهوم فلسفي يعني مجموع السمات والمواقف المتوفرة عن الآخر"2.

ونظرا للعلاقة الجدلية بين الأنا والآخر يصبح من العسير الحديث عن الآخر بمعزل عن الأنا، فأينما وجد الآخر فالأنا وعلى نحو بديهي تكون مقابل هذا الآخر، وعليه يتحول الآخر إلى مرآة يقرأ من خلالها الأنا ذاته .لأن تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر والعكس صحيح، ومن ثمة فإن نفي الآخر هو بتر للذات.3

ومن التعريفات الحدائية التي صيغت للآخر أنه ذلك الدال على المختلف القابل للاكتشاف ، فهو يختلف عن الأنا باتجاهاتها السيكلوجية والمرجعية كلها، ذلك أن

الأنا نفي للآخر بالضرورة ووجود أحدهما يقتضي غياب الآخر ، واللقاء بينهما لسبب من الأسباب يقتضي الحذر والتوجس خيفة من الطرف الآخر .

لقد اهتمت البحوث الخاصة بالآخر بالتركيز على المختلف من حيث العقيدة ، العرق و الحضارة بمعنى واسع، فالآخر لا يكون إلا بوجود ذلك الاختلاف بين الجماعات وتمايزها ولاسيما في مسألة الانتماء القومي والعقائدي الذي يظل من أكثر الانتماءات المؤدية إلى انقسام شعوب العالم في العصر الحديث على أسس قومية - عقائدية .

ينبغي أن نشير أن هذا الآخر يتحول بالنظر إلى طبيعة العلاقات بين الجماعات و بالنظر كذلك إلى المصالح الاقتصادية والسياسية، التي في ظلها قد يتحول العدو إلى صديق مثلما قد يغدو العدو صديقا .

وإذا سلمنا بأن ثمة تلازم بين مفهومي (الأنا) و (الآخر)، يصبح اشتغال الأنا يستدعي تلقائيا حضور الآخر، ذلك أن صورة الذات عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لديها . فبدون معرفة الآخر عمليا يظل التعامل معه في حدود الصورة التي نراها أو نريدها أن تكون، حتى ولو كانت هذه الصورة غير مطابقة للواقع.

إذا كانت الكتابة ظاهرة حضارية ، يجوز لنا القول إن الكاتب الجزائري في مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي ومن خلال ما توافر لدينا من نصوص قادر على إنتاج الثقافة ، لأن وجود مثل تلك النصوص دليل في حد ذاته على أن الأنتلجنسيا الأدبية الجزائرية قد انتزعت مكانتها الخاصة على الرغم من الغبن الاستعماري الذي كانت تعانيه تحت السلطة الرومانية. بل لا نغالي إذا قلنا أنه كان لديها من الإمكانيات ما يجعلها قادرة على خلق مسافة لتأمل التاريخ ونقد الذات ونقد الآخر .

مساءلة الأعمال المختارة للتحليل ستكون في ضوء أسئلة جديدة تسعف على استكشاف مضمراتها ومقاصدها. مركزين على خصائصه الفنية وما تثيره من إشكالات مختلفة. ندرج في معالجتها في ضوء المستويات التالية :

1- تقديم النص من حيث جنسه ونوعه.

2-رصد بنياته مع التركيز على تفاعل الأصوات الإيديولوجية واختلاف مقاصدها و إيديولوجياتها.

3-إبراز الهوية القائمة بين منظومتين ثقافيتين وإيديولوجيتين متباينتين (الثقافة الناظرة والثقافة المنظور إليها).

الحمار الذهبي لأبوليوس:

ولد " لوكيوس أبولويوس " في القرن الثاني الميلاد حوالي (125م-170م) بمدينة مداوروش قرب مدينة سوق أهراس ، من أهم مؤلفاته:

الحمار الذهبي أو التقمصات إلى جانب ديوانه "الأزاهير" .ويعتبر مؤلفه" الحمار الذهبي" أول بادرة في كتابة الرواية العالمية .4

يقوم نص"الحمار الذهبي" على التقطيع أو التشظي النصي والذي يتمظهر في صيغة مجزوءات حكائية، تستند الحكاية المركزية فيه إلى وحدات حكائية تشكل متواليات تنشط إلى أحد عشر كتاب. المحكي فيها قدم بطريقة يتجاوز فيها الواقعي بالعجائبي نظرا لتعلق النص نصيا مع الأسطورة والخرافة والحكاية العجبية التي منها استلهم تيمات، لذا فهو مستعص على الفهم.

يفيض السرد في رواية "الحمار الذهبي" عن الرحلة التي يقوم بها السارد نحو عوالم المجهول وينتهي سيلانه بالعودة إلى وطنه. على امتداد زمن الرحلة تتبدل الأمكنة والشخصيات وتتوالد الأحداث ، الأمر الذي يضيف على هذا النص طابع المتعة والتشويق.

إن فكرة جمع الحكايات تقتضي حركة في الزمان والمكان وتغيّر في المواقع والأحداث. وهو الأمر الذي أسهم في تعدد أصوات الرواية ، فبالإضافة لصوت السارد هناك أصوات شخصيات متوالدة تقوم بعملية الحكى ، صادفها هذا السارد أثناء رحلته .

قام السارد أبوليوس بتحسين المكان الأول ، إذ لم يكشف لنا أبعاده وتفصيله . وقرر الانتقال إلى مكان آخر يكون مسرحا مناسباً للأحداث التي سردها لنا . وفي هذا التحول من مكان إلى آخر تكتشف الأنا الآخر . ولو ظلت في مكانها لما تسنى لها ذلك. هذه المواجهة تمت من خلال انخراط الذات في عوالم الآخر ومعايشة تجاربه. لكن كيف تم ذلك ؟

نلاحظ أن الأنا الساردة دخلت في علاقة اتصال مع الثقافة اليونانية من خلال توظيفها للخرافة اليونانية التي بها توشحت رواية الحمارة الذهبي. فهذه الرواية مدينة للثقافة اليونانية . في الوقت نفسه تضع هذه الأنا فاصلا ما بينها وما بين الانحلال الخلقي الذي تشهده الحضارة الغربية على أيامها . لكن الأنا الساردة لم تتموقف هذا الموقف إلا بعد تواصلها مع هذه الحضارة في جانبها السلبي أي لدى تحولها إلى حمارة.

إذن في الفضاء الجديد انخرط السارد في التجربة والممارسة وأصبح جزءا من اللعبة السردية بعد أن تحول إلى حمارة. وأصبح ضمانا لترابط الحكايات، وتزامنا

مع هذا البرنامج السردى غدا السارد متواجدا في مركز القصة ليتحول من عين ملتقطة إلى ذات فاعلة .

عندما تحوّل "أبوليوس " إلى حمار شعر بضياح جوهر الذات الحقيقية، وخواء الحضارة الغربية من الجانب الروحي وانغماسها في الانحلال الأخلاقي ، الأمر الذي عسر اندماجه في المجتمع الجديد. إنها عزلة روحية وليست عزلة ثقافية. حيث بدأ يفكر في كيفية تطهير أناه وتجديدها من خلال التشبث بالعقيدة.

يقول السارد لصديقه فوتيس : "فإني أطلب منك أن تستجيبى لرغبتى هذه، وأن ترينى سيدتك عندما تقوم بعمل من أعمالها السحرية . "5

السارد: "لم أر نفسي طائرا بل رأيت نفسي حمارا"6.

إن الأنا الأهلي الإفريقي "السارد – لوكيوس أبوليوس" هو الملتقط المتأمل، قدّم أناه على أنها غريبة مكانيا من خلال الرحلة التجارية التي أوهم القارئ أنه يتقصدها قصدا. والغربة هنا لا تعني غربة المكان، إنما غربة النفس والفكر والروح .

لمعرفة نفسه كان عليه أن يتعرف على الآخر عن قرب . في هذا المنحى يقول سارتر: " وجود الآخر شرط لوجودي وشرط لمعرفتي لنفسي وعلى ذلك يصبح اكتشافى لدواخلى اكتشافا للآخر . "7

إن الحاجة إلى معرفة الأنا والعالم المحيط بها تعتمد على معرفة الآخر والاقتراب منه بإحدى الكيفيات، لذا نلاحظ أن السارد يتقوى بأناه للتعامل مع الآخر الخارجى . كما نلفيه يقيم الآخر وبناء على هذا التقييم يقيم أناه ، ذلك أن الهوية تحتاج إلى

آخر لتتميز إزاءه. هنا تتكشف طبيعة العلاقة الإيديولوجية التي تجمع الأنا بالآخر، و مدى تفاعلها سلبا أو إيجابا.

يتكرس الفعل التواصلي بين العنصر الأمازيغي ممثلا في السارد -الكاتب والثقافة اليونانية من خلال الإرث الفني من أساطير وخرافات التي وشح بها عمله الروائي "الحمار الذهبي" . تلمح الكتابة هنا إلى أن انصهار الثقافات مسألة أكثر من ضرورية على مستوى الكتابة الأدبية على الأقل ، لكن هناك تواصل من نوع آخر والذي تجسّد لدى تجريب السارد للخلاطة السحرية على جسده ثم تحوله إلى حمار .

لقد جرب السارد أن يكون آخرًا لدى انقسام الذات على نفسها ، غير أنه لم يتوافق مع أنه بوصفها آخرًا. هنا نستحضر قول جوليا كريستيفا التي ترى " أن الآخر الغريب يسكننا على شكل غريب." 8.

عكس أبوليوس جوهر الكينونة البربرية ،حيث لم يكن منطويا على ذاته عندما سمح لأنه أن تتفاعل مع ثقافات أجنبية مختلفة عن ثقافته الأم، فكان الداعم لجانب من هذه الثقافة في جانبها الفني عندما اشتغل عليها ووظفها بل أحيائها وبعثها في شكل فني روائي خلد الخرافة اليونانية .في مقابل تموقفه موقفا سلبيًا من الحضارة الرومانية ، حيث تعد رواية "الحمار الذهبي" قراءة نقدية ساخرة للمجتمع الروماني على الصعيد الاجتماعي. فهذه الإمبراطورية وعلى النحو الذي تمظهرت به في النص ،عائمة في الرداءة و الزيف ،ذاهبة نحو الانحلال المعرفي و الروحي لا محالة. والرواية في رحلتها الفانطاستيكية رغم طابعها الخرافي تعد نصا واقعيًا ينتقد العقل الظلامي ويسفه سلوكات السحرة وانحطاط الأخلاق ، بل هي مؤشر على إعلان انهيار الإمبراطورية الرومانية وإفلاسها أخلاقيا .

عظفا على ما سبق يحق لنا القول إن الرواية جاءت لتسد ذلك الفراغ في الحضارة الغربية المادية وتخلق التوازن ما بين الروح والمادة، لقد وضع السارد يده على الخواء الروحي لهذه الحضارة.فانتشل نفسه منها أولا بتطهره ،ثانيا بعودته من حيث أتى .وفي الملفوظات التالية ما يسند تخريجنا هذا:

" : وإنما وقعت في فترة الشباب الفج بين أحضان اللذة الوضيعة. "9 .

" : فبدأت رحلتي إلى وطني بعد أن تأخرت كثيرا... "10

" : رجل مداوري فقير جدا. "11

إن تواصل الأنا مع الآخر تمّ على عدة مستويات أولها: المستوى اللغوي وفعل الكتابة بأساسية اللغة اللاتينية ، ثانياها الاستثمار في الجانب الروحي أمام طغيان الحضارة المادية.ثالثها توظيف الإرث الفكري للثقافة اليونانية (أشهر الخرافات). لقد احتاج الكاتب إلى لغة الآخر بوصفها وسيلة للإفصاح عن هويته وعليه تدين أنا الكاتب ونصه بوجودهما لإسهام الأمم الأخرى من حيث الثقافة واللغة.

السارد:" أرجو أيها القارئ أن تعذرني إن أنا تعثرت في هذه اللغة الأجنبية من حين لآخر."12

حتى تحقق الأنا نفسها وتقاوم اغترابها ينبغي لها أن تناضل من أجل ألا تكون مجرد أداة موضوعية واجتماعية وأن تعمل في الوقت نفسه على أن تعلق على نفسها من خلال الخروج عن عزلتها واتحادها بالذوات الأخرى بالاتصالين الثقافي و الروحي. وما يمكن الوقوف عليه من خلال هذا التحليل أن الأنا والآخر وإن تنابذا سياسيا سيظلان يتفاعلان سلبا أو إيجابا بالنظر إلى علائق القوة التي تمنح

الغلبة لطرف على حساب الطرف الآخر. على أن ذلك لا ينفي ما أثبتته مجموعة من الدراسات من أن لكل شعب ثقافته الخاصة .

الهوامش:

- 1- شلترد ، نظريات الشخصية ، ترجمة : حمد علي الكربولي وعبد الرحمن القيسي ، بغداد مطبعة جامعة بغداد ، 1983 ، ص. 11 .
- 2- عبد الرحيم المؤذن، الآخر في الرحلة المغربية ، المغرب ، مجلة المناهل ، 2002: العدد 66-67، ص. 415. 416.
- 3- ألييب ط، صورة الآخر ناظرا ومنظورا إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، 1999 ، ص. 22.
- 4- أبوليوس، الحمار الذهبي ، من ص. 9 إلى ص. 49.
- 5- م س، ص. 88.
- 6- م س ، ص. 91.
- 7- سارتر ، عن الغضنفر، م ، الذات بوصفها آخرا في شعر المتنبي ، ضمن : تعدد الرؤى - نظرات في الشعر العربي القديم ، الأردن ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، 2010-2011، ص. 39.
- 8- كريستيفا عن الغضنفر، الذات بوصفها آخرا ، ص: 39.
- 9- أبوليوس، الحمار الذهبي، ص. 272.
- 10- م س، ص ، 242.
- 11- م س، ص ، 291 .

م س، ص، 41